نظمي الجعبة *

الحفريات الأثرية في القدس منذ العام ١٩٦٧ من مصنع الرواية التوراتية إلى مصنع الاستيطان

مقدمة

لم ينفصل حقل الآثار في فلسطين عن البعدين الأيديولوجي والسياسي، فقد طور على أرض فلسطين خدمة لهذين الغرضين، وجاء في كل مراحله خادما أمينا لهما. اعتمد حقل الآثار على منهجية واضحة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد يكون قبل ذلك، تتمثل بإثبات الأحداث التي جرت على أرض فلسطين الواردة في العهد القديم، منطلقا من فرضية تاريخية هذه الأحداث، فتثبيت هذه الروايات على أرض الواقع كان جزءا لا يتجزأ من «المهمة المقدسة»، وبهذا تم إنتاج خرائط ومسميات للمواقع ومصطلحات تتواءم كلها مع العهد القديم. سُمي هذا الحقل بـ«الآثار التوراتية»، بحيث لم تخلُ جامعة أوروبية أو أميركية معتبرة من قسم أو معهد تخصص بهذه الآثار، وأصبحت آثار فلسطين «التوراتية» تنافس في الإثارة حقول الآثار الكبيرة والعظيمة مثل الآثار الفرعونية وآثار بلاد ما بين النهرين.

تحولت أرض فلسطين إلى ساحة تنافس واسعة بين الباحثين الغربيين المتطلعين إلى إثبات صدقية الرواية التوراتية وحمل أي قطعة أثرية (مقدسة!) إلى بلادهم تظهر من قريب أو من بعيد العلاقة بالعهد القديم. ولم يتم الترفع في كثير من الحالات عن ليّ ذراع المكتشفات الأثرية لتقص رواية وضعت بشكل مسبق، وكان الهَمّ الأساس هو إطباقها على أرض الواقع، وفي الحقيقة أنه في كثير من الحالات وضعت نتائج الحفرية قبل البدء بإزالة أي طبقة أثرية من الموقع.

يقول عالم الآثار الإسرائيلي عميحاي مازار (Amihai Mazar)، الذي يعبر عن مرحلة بين المحافظين والمنفتحين ويحاول

* أستاذ التاريخ، جامعة بيرزيت.

ينسحب ما يمثله مازار في النص المذكور أعلاه على غالبية الأثريين والمؤرخين الإسرائيليين، فبعد انتهاء المدرسة المهيمنة، لم يعد بالإمكان التمسك بالرواية التقليدية بحذافيرها، كما لم يكن بإمكان غالبيتهم التخلص منها تماما، فاختاروا منزلة بين منزلتين، حيث تُلاحظ روح نقدية في جنبات نصوصهم، لكنها تفتقد إلى الوضوح، وأعتقد أن الأمر لديهم مرتبط بوظيفة كتابة التاريخ، حيث أن الصراع على أرض فلسطين لم ينته لا بكامب ديفيد ولا بأوسلو.

التوفيق بين المنهجين، «كان علم الآثار في فلسطين، وإلى حد بعيد حتى اليوم، مدفوعا بدوافع الاهتمام بالعهد القديم. وكان غالبية الآثاريين العاملين في فلسطين يتشكلون من الباحثين والمتخصصين بالعهد القديم، وبالتالي كانوا يفهمون الآثار والتاريخ من خلال النصوص التوراتية، وكان هذا الفهم يسيطر على تحليلهم للمكتشفات الأثرية ... وعلى هذه الخلفية، تم ارتكاب أخطاء جسيمة في الاكتشافات الأثرية في فلسطين مثل تشخيص «مناجم الملك سليمان» في تمناع ... فهم بئر وارن (Warren Shaft) في القدس...».[1]

وفي الحقيقة فإن ما يمثله مازار في النص المذكور أعلاه ينسحب على غالبية الأثريين والمؤرخين الإسرائيليين، فبعد انتهاء المدرسة المهيمنة، لم يعد بالإمكان التمسك بالرواية التقليدية بحذافيرها، كما لم يكن بإمكان غالبيتهم التخلص منها تماما، فاختاروا منزلة بين منزلتين، حيث تُلاحظ روح نقدية في جنبات نصوصهم، لكنها تفتقد إلى الوضوح، وأعتقد أن الأمر لديهم مرتبط بوظيفة كتابة التاريخ، حيث أن الصراع على أرض فلسطين لم ينته لا بكامب ديفيد ولا بأوسلو، وبالتالي يتطلب الخروج من البوتقة التقليدية (الرواية الصهيونية) ظروفا موضوعية غير تلك التي سادت حتى اليوم.

ويبدو أننا قد دخلنا في مرحلة كان من المقرر لها أن تؤكد على صحة النص اليقين المقدس من خلال المكتشفات الأثرية، ولكن بعض النزاهة العلمية عند بعض الأثريين الإسرائيليين ستؤدي إلى نتائج مغايرة تماما لما خطط لها أصلا؛ أي انقلاب السحر على الساحر، أو لنقتبس ما كتبه الناقد الفلسفي الإسرائيلي غبريئيل بيتربيرغ «... مع ذلك، فإن نتائج هذه البحوث (الأثرية) كانت هدامة، بل وغبية إلى حد ما. فالإخلاص للصدق العلمي من قبل الأثريين من جيل عالم الآثار يوسيف هيرتسوغ[2] أدى إلى دحض ما كان من المفترض أن يثبت ويتأكد».[3]

القدس في الحفريات الإسرائيلية

كتب الكثير حول الحفريات الأثرية الإسرائيلية في القدس وبلغات مختلفة، وقد ساهمت نادية أبو الحاج بنقاش مركزي ومهم حول الآثار والسياسة في إسرائيل بشكل عام، واضعة ذلك ضمن إطار نظري مثير استقطب ردة فعل غاضبة حتى من جانب اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأميركية، لأنه يثبت بشكل واضح كيفية تسخير التاريخ والآثار كأدوات سياسية في كتابة التاريخ في إسرائيل، وبالتأكيد حظيت القدس بمساحة وافرة في نقاشاتها.[4] وفي الحقيقة أنه على المستوى الأكاديمي العالمي أصبح كل كتاب أو حتى مقالة حول آثار القدس لا تخلو من مراجعة نقدية لما تم في حقل الآثار في القدس وتسخيره كأدوات سياسية وأيديولوجية.[5]

إذا القضية لا تتعلق فقط بالرواية التاريخية ومدى صدقيتها، على الرغم من الأهمية الخاصة لذلك، خاصة في مسألة تتعلق بتاريخ الديانات السماوية من جهة وبتاريخ البحث العلمي من جهة ثانية، بل تتعلق بالأساس بالبحث عن مصوغات تاريخية ترتبط بشرعية امتلاك التاريخ من قبل جهة معينة وتناسٍ مقصود لتواريخ أخرى متزامنة ومكملة،[6] وبتاريخ فاعلين آخرين مركزيين في صياغة هذا التاريخ وبلورة الهوية الحضارية لوحدة جغرافية غير منعزلة عن بيئة حضارية واسعة.

وقبل الإسرائيليين، عملت مجموعات أجنبية محافظة، على بناء إطار تاريخي لمدينة القدس مطابق للرواية الواردة في العهد القديم وبحذافيرها وتفاصيلها المملة بعد أن ثبتتها كـ«حقيقة تاريخية» بل «حقيقة إلهية» لا تقبل الشك، وبهذا بدأت عملية استكشاف مدينة القدس بدءاً بالمسوحات الطوبوغرافية، وإسقاط المعالم الحضارية الأساسية داخل البلدة القديمة أو القريبة منها على خرائط تفصيلية، وإجراء العديد من الحفريات «الأثرية» التي

تبلورت نتيجة لأعمال الغرب ولاحقا إسرائيل صورة تاريخية لمدينة القدس على أساس ارتباطها بتاريخ النظم السياسية التي حكمت بشكل مباشر أو تلك التي كانت وكيلة لقوى عظمى، وليس على أساس تاريخها الاجتماعي والاقتصادي وتحديدا تاريخ المجموعات الإنسانية التي صنعت ماضي المدينة. وهذا بالتحديد ما حصل بعد السيطرة الإسرائيلية المباشرة على القسم الباقي من مدينة القدس إثر حرب ١٩٦٧م (خاصة البلدة القديمة).

حاولت الكشف عن السياقات التاريخية للمدينة، خاصة التي تتقاطع مع فترة العهد القديم، وأصبحت «الجغرافيا المقدسة» و«المشهد المقدس» (The Holy Landscape and the Holy Land Geography)[٧] حقيقة واقعة لا تقبل التأويل، فقد جرى تعيين غالبية المواقع وتثبيتها وشحنها بما تيسر من النصوص المقدسة، وبغض النظر عن مدى انطباقها على الواقع، وعلى الأجيال القادمة أن تتعامل معها وتبني دراساتها على أساسها وعلى أساس أنها «حقائق» ثبتت تماما. ويمكن القول إن ما يعانيه تاريخ القدس الآن، وطبعا تاريخ فلسطين ككل، قد أسس له خلال هذه الفترة التاريخية.

في هذه المرحلة أيضا، أي التي نشط فيها علماء الآثار القادمون من الغرب، وضعت أسس العديد من مؤسسات البحث التي ما زالت عاملة في القدس حتى اليوم. وفي الحقيقة فقد تفاوتت نسبيا المناهج تبعا للتجربة القومية لأصحاب المدرسة، لكنها توافقت جميعها على منهج الآثار والتاريخ التوراتي، ليس فقط كمنهج أكاديمي، بل أيضا كهدف واضح المعالم. وبالتأكيد، يجب القول إننا لا نبغي وراء ذلك ذم ورفض كل عمل هذه المؤسسات، فهذا تجنٍ لا نريد الوصول إليه، فالكثير من الأعمال التي قاموا بها كانت على درجة عالية من الأهمية، وتركوا تراثا توثيقيا لا يمكن الاستغناء عنه، لكن من جهة أخرى فإن فهم تاريخ هذه المؤسسات سيساعد على تحقيق القراءة النقدية لأعمالهم، كما أنه قد يثير الاهتمام في تتبع خطاهم ومراجعة ما كتبوه ونقده. أما التحذير الثاني الضروري وهو عدم تعميم بعض الأفكار على الجميع، فقد كان هناك من انفلت من عقد المؤسسة التي عمل باسمها أو لصالحها وغرد خارج السرب، بل وصل بعضهم إلى مستوى متقدم من نقد ورفض أفكار مؤسسته، وقدم بدائل مهمة في إعادة فهم الآثار في فلسطين.

ويمكن وصف المدرسة الإسرائيلية في الآثار بأنها أداة مركزية في عملية تشكيل بالاعتماد على العهد القديم، طبعا إلى جانب الجيش. كما ساهمت هذه المدرسة في تحويل فلسطين (الأرض المحتلة عام ١٩٤٨) إلى نقطة حدث أركيولوجية عالمية، بحيث تشكلت البعثات المشتركة للتنقيب عن الآثار وكتابة التاريخ ما بين الباحثين الغربيين والإسرائيليين، وأخذت هذه البقعة الصغيرة نسبيا تحتل مكانة كبيرة في الاهتمام والإثارة، وظهرت تبعا لذلك مئات الكتب وآلاف المقالات بكل لغات العالم. تبلورت نتيجة لأعمال الغرب ولاحقا إسرائيل صورة تاريخية لمدينة القدس على أساس ارتباطها بتاريخ النظم السياسية التي حكمت بشكل مباشر أو تلك التي كانت وكيلة لقوى عظمى، وليس على أساس تاريخها الاجتماعي والاقتصادي وتحديدا تاريخ المجموعات الإنسانية التي صنعت ماضي المدينة. وهذا بالتحديد ما حصل بعد السيطرة الإسرائيلية المباشرة على القسم الباقي من مدينة القدس إثر حرب ١٩٦٧م (خاصة البلدة القديمة)، حيث بدأت دائرة الآثار الإسرائيلية بالتعاون مع الجامعات الإسرائيلية بإطلاق سلسلة من مشاريع المسوحات والحفريات في المدينة، خاصة في البلدة القديمة منها، بهدف البحث عن بقايا التاريخ التوراتي. والمثال الأبرز على هذه المشاريع هو مشروع التنقيب في حارة المغاربة والمناطق المحيطة بها وحارة اليهود، وطبعا سلوان وتلة الضهور (أوفل)، وسلسلة التنقيبات في الأنفاق المائية تحت مسطح المسجد الأقصى وفي المنطقة المحيطة به نزولا إلى وادي حلوة في سلوان، والذي استمر منذ عام ١٩٦٧ حتى اليوم.

وبالرغم من الارتباط المباشر لعلم الآثار بالحركة الصهيونية، إلا أنه يجب عدم المبالغة في عدد الأثريين اليهود ولا بمشروعاتهم المحدودة قبل العام ١٩٤٨ ، وذلك على الرغم من تأسيس دائرة الآثار في الجامعة العبرية منذ بدايتها، وبالتالي لا يمكن مقارنتهم ولا

وبعد حزيران عام ١٩٦٧، انطلقت الحفريات الإسرائيلية في المنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى، وانكب علماء الآثار الإسرائيليون على هذه «الغنيمة» بشراهة أفقدتهم توازنهم العلمي والأخلاقي، ولم يتوانوا عن استعمال الجرافات في الحفريات، واختلط السياسي بالعلمي بالديني، فقد أضحت الفرصة سانحة لكسب سبق علمي مدوٍ يرتبط باكتشاف له علاقة بالهيكل، وذلك تحت تأثير نشوة الانتصار المدوي في الحرب.

بأي شكل من الأشكال، سواء من جهة العدد أو حجم الحفريات، بالمدارس والبعثات الأجنبية، وبالتأكيد لا يمكن مقارنتهم بالأثريين الإسرائيليين الذين نشطوا بعد الإعلان عن إقامة دولة إسرائيل بعد العام ١٩٤٨. على أي حال، نذكر الناشطين المهمين في حقل الآثار من اليهود قبل العام ١٩٤٨: يغئال يادين (Yigael Yadin)، بنيامين مازار سوكنيك (Benjamin Mazar-Sukenik) وآفي يونه (Avi-Yunah)، ولكل قصته وتأثيره على حقل الآثار. وكان هؤلاء كلّهم مرتبطين برباط وثيق بالحركة الصهيونية قبل انخراطهم بالعمل الأثري، واستمروا بذلك حتى اليوم الأخير من حياتهم، كما كان يجمعهم أنهم درسوا وتدربوا على علم الآثار في أوروبا موطنهم الأصلي، وبالتالي حملوا معهم مفاهيم هذا العلم وأدواته في حينه، علاوة على فكرهم الصهيوني، فاندمجت الفكرة القومية المشتعلة في أوروبا بين الحربين العالميتين بفكرتهم الصهيونية المندمجة أيضا بقومية يهودية، وبالتأكيد لم يكن هؤلاء مندفعين بالفكرة الدينية، مثل الكثير من زملائهم من الأوروبيين، لكن بتحويل فكرة الدين إلى دولة، وبالتالي لم يكن يشغلهم إثبات وجود القصص الديني، بقدر ما كان يشغلهم إثبات وجود شعب إسرائيل في تاريخ فلسطين، وربط هذا الوجود بالحركة الصهيونية المطالبة بـ«استرداد» فلسطين.

وبعد حزيران عام ١٩٦٧، انطلقت الحفريات الإسرائيلية في المنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى، وانكب علماء الآثار الإسرائيليون على هذه «الغنيمة» بشراهة أفقدتهم توازنهم العلمي والأخلاقي، ولم يتوانوا عن استعمال الجرافات في الحفريات، واختلط السياسي بالعلمي بالديني، فقد أضحت الفرصة سانحة لكسب سبق علمي مدوٍ يرتبط باكتشاف له علاقة بالهيكل، وذلك تحت تأثير نشوة الانتصار المدوي في الحرب. ويمكن النظر إلى يغئال يادين السياسي والآثاري البارز كنموذج لهذا الخلط.

يعتبر يغئال يادين[٨] الأب الروحي للآثار في إسرائيل ما بعد عام ١٩٤٨، فعدا عن أعماله الكثيرة، إلا أنه أكثر الإسرائيليين نجاحا في الربط بين إسرائيل والماضي، وهو الذي قام بتشكيل بعض الرموز الوطنية ومن ضمنها «أسطورة متسادا»،[٩] كما أنه قاد أوسع حملة حفر للمنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى. بدأ حياته في الجيش الإسرائيلي وأصبح رئيسا لأركانه سنة ١٩٤٩، وبعد انتهاء فترته البالغة ثلاث سنوات، استقال من الجيش سنة ١٩٥٢، وحصل عام ١٩٥٦ على درجة الدكتوراه في الآثار عن ترجمته لبعض مخطوطات قمران، وقاد حفريات في كل من متسادا، وقمران، وتل مجدو. واجهت يادين حملة انتقادات كبيرة بسبب قيامه بتحريف تاريخ قلعة متسادا وتحويل الخرافة التاريخية إلى «حقيقة» وتحويل من انتحروا، إن تم ذلك أصلا، إلى أبطال قوميين ونموذج للمحارب اليهودي الذي يرفض الاستسلام ويفضل الموت بحرية.[١٠] قضى يادين حياته بحثا عن داود وسليمان، وتعرضت لاحقا أبحاثه وحفرياته، وخاصة تأريخه للآثار، إلى الكثير من التشريح والرفض، وكان واضحا اندفاعه العسكري في حقل الآثار وكأنه يخوض حرب وجود، وكان يشعر دائما بأن وجود إسرائيل لا يمكن أن يستمر بدون «إثبات» حقيقة وجودها في التاريخ، وبذلك خلط ما بين العلم والتمنيات، بحيث لم يعد هو نفسه يفرق بينهما.[١١]

ومن أهم إنتاجات يادين حول القدس كتاب موسع قام بكتابته مع مجموعة من المؤرخين والأثريين، حاول من خلاله تقديم الرواية الرسمية الإسرائيلية حول تاريخ القدس.[١٢] وفي عام ١٩٧٦ شكل يادين حزبا سياسيا سماه الحركة الديمقراطية للتغيير (داش) وحصل الحزب في أول اشتراك له في الانتخابات عام ١٩٧٦ على ١٥ مقعدا في الكنيست الإسرائيلية، وذلك من أصل ١٢٠ مقعدا، وبهذا أصبح نائبا لرئيس الوزراء. ويدلل نموذج يادين على مدى

بحثا عن داود وسليمان، وتعرضت لاحقا أبحاثه وحفرياته، وخاصة تأريخه للآثار، إلى الكثير من التشريح والرفض، وكان واضحا اندفاعه العسكري في حقل الآثار وكأنه يخوض حرب وجود، وكان يشعر دائما بأن وجود إسرائيل لا يمكن أن يستمر بدون «إثبات» حقيقة وجودها في التاريخ، وبذلك خلط ما بين العلم والتمنيات، بحيث لم يعد هو نفسه يفرق بينهما.

الاستثمار الإسرائيلي بحقل الآثار كمصدر للشرعية، حيث تحظى إسرائيل حتى اليوم بأعلى نسبة من المتخصصين بالآثار في العالم نسبة لعدد السكان.

أما النموذج الآخر لهذه المدرسة فهو بنيامين مازار (Maisler)[١٣] الذي أعتبر من أكبر المؤرخين والأثريين الإسرائيليين، وهو عالم أيضا بنصوص العهد القديم والجغرافية التاريخية لفلسطين. اشتهر بنيامين مازار في دمجه بين الآثار والجغرافية وآثار الشرق القديم بالاعتماد على النصوص المقدسة. شغل العديد من المناصب، بالإضافة إلى خدمته العسكرية الطويلة، فقد وصل إلى منصب رئيس الجامعة العبرية في القدس سنة ١٩٥٣ واستمر في هذا المنصب حتى العام ١٩٦١. اشتهر عمله الأثري بالحفريات الضخمة التي قادها عقب حرب حزيران عام ١٩٦٧ على امتداد الجدار الغربي والجدار الجنوبي للمسجد الأقصى (وما تحته أحيانا)، وذلك بحثا عن آثار الهيكل. اعتبر مازار الآثار جزءاً من هويته الوطنية، والبحث الأثري خدمة وطنية تماثل الخدمة العسكرية في أهميتها.

هناك منهجان في حقل الآثار في إسرائيل، يحاول الأول ليّ ذراع التاريخ وروايات وأحداثه، واستعماله مصوغا للوجود كدولة لها عاصمة ونشيد وطني، نافيا السبب الأساس من وراء تأسيس دولة إسرائيل من قبل قوى ومنظمات كولونيالية هدفت من وراء ذلك السيطرة على مقدرات منطقة استراتيجية مهمة بموقعها ومواردها، وكمساهمة مركزية في تفتيت أوصال هذه المنطقة، مانعة انبعاثها من جديد كقوة. وبعد عقود على هذا التأسيس، ومأسسة الدولة المخترعة، لعب التاريخ بعلومه المختلفة دورا مركزيا في ضمان استمرار شرعيتها، وفي الحقيقة فإن دور هذه «الدولة» لم ينته بعد، وقد ينتهي في المستقبل، لكن يجب عدم التقليل أبدا من الآليات التي يمكن أن تطورها لضمان استمرار

الحرم القدسي في المهداف الآثاري للاحتلال.

وجودها، حتى لو تضاءل دور التاريخ والآثار في مبرر الوجود.[١٤]
أما المنهج الثاني، غير الرسمي وما زال بشكل عام هامشيا، فقد ابتعد بعلم الآثار عن التجاذبات السياسية والدينية والأيديولوجية.

وتحقيقا للأهداف التي وضعت لعلم الآثار، يمكن القول إن الحفريات الإسرائيلية في القدس القديمة ومحيطها قد ركزت على عدة محاور تكشف تماما الغرض من ورائها، ويمكن إجمالها بما يلي:

أ. المسجد الأقصى والمنطقة المحيطة به

تركزت الحفريات الإسرائيلية في كل الجهات المحيطة بالمسجد الأقصى، وقد جرت فيها عشرات الحفريات، خاصة في الجهتين الجنوبية والغربية، منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي تحت المباني المنتشرة على امتداد الجدار الغربي

ويذكر بأن أهم ما كشفت عنه حفريات هذه المنطقة، خاصة في المنطقة التي تقع بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد، هو دار الإمارة الأموية والتي تتشكل من ثمانية أبنية ضخمة، واكتشاف هذه لها قصة يطول شرحها. إن أخطر الحفريات التي تتم في هذا المحور تقع على امتداد الجدار الغربي للمسجد والتي لا نعرف عنها شيئًا، حيث تم الحفاظ على سريتها، ويمكن الاستدلال عليها من خلال أصوات الحفر فقط.

للمسجد، وحتى تحته في بعض الأحيان. وشملت هذه الحفريات طبعا الساحة الواسعة التي تم تشكيلها نتيجة تدمير حارة المغاربة في حزيران عام ١٩٦٧ . لم يكن هدف هذه الحفريات كتابة تاريخ القدس ولا الكشف عن الآثار المثيرة التي قد تظهر فيها، بل كان وما زال الهدف المعلن هو الكشف عن بقايا الهيكل الأول والثاني، وبالتالي لم يكن أي شيء يثير الحفار في هذه المنطقة ليس له علاقة بالهيكل، وكان التجريف في الفترات الأولى، خاصة منذ عام ١٩٦٧ وحتى منتصف الثمانينيات هو سيد الموقف الذي لا ينازع. ويذكر بأن أهم ما كشفت عنه حفريات هذه المنطقة، خاصة في المنطقة التي تقع بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد، هو دار الإمارة الأموية والتي تتشكل من ثمانية أبنية ضخمة، واكتشاف هذه لها قصة يطول شرحها. إن أخطر الحفريات التي تتم في هذا المحور تقع على امتداد الجدار الغربي للمسجد والتي لا نعرف عنها شيئًا، حيث تم الحفاظ على سريتها، ويمكن الاستدلال عليها من خلال أصوات الحفر فقط.

لقد تم تحويل المنطقة المذكورة إلى حديقة للآثار «سميت حديقة دافيدسون» التي تعرض عبر الصوت والصورة قصة الهيكلين الأول والثاني وتثبت بشكل لا لبس فيه، ليس فقط المصطلحات التي أسقطتها على تاريخ المدينة، بل أن لا أحد قد سكن المدينة غير اليهود، ولا حق لأحد غيرهم فيها. كل ذلك ممزوج، طبعا، بنصوص مختارة من العهد القديم لزيادة القدسية. وتقوم جمعية إلعاد الاستيطانية[١٥] بإدارة الموقع، وهو أمر يثير علماء الآثار حتى من الإسرائيليين الذين يدركون حساسية الموقع من جهة وطبيعة الرواية المتطرفة التي تقدم للزائرين، تلك الرواية التي انهارت غالبية مكوناتها في الأوساط العلمية، وذلك بالاعتماد على المكتشفات الأثرية.

ب. «حارة اليهود»

كما هو معلوم، أقدمت إسرائيل على تحديد مساحة تصل إلى حوالي ١٢٪ من مساحة البلدة القديمة، وأعلنتها حارة لليهود، وذلك بغض النظر عن الملكيات فيها، حيث تبلغ الملكيات الإسلامية في هذه المنطقة حوالي ٨٧٪ من مجموع العقارات.[١٦] وقد أقدمت بعدها على إجراء حفريات واسعة ضمن مشروع «إعادة بناء حارة اليهود»، مدمرة بذلك نسيجها التاريخي ومعيدة بناء غالبية المباني من جديد، بشكل لم تشهده بلدة قديمة في العالم من قبل، ولا سيّما بلدة بمكانة القدس. ورافق ذلك حفريات أثرية تهدف إلى ربط الحارة بالفترات التاريخية القديمة، خاصة فترة هيرودوس، إلا أن هذه الحفريات أيضا لم تضف إلى الادعاءات التاريخية أي ذخيرة تذكر، لكنها زينت الحارة بالكثير من المواقع الأثرية وأعطتها عمقا تاريخيا مثل الكشف عن جزء من الشارع الروماني المعمد، والكشف عن كنيسة ألمانية تعود إلى القرن الثاني عشر، والكشف عن سور يعتقد بأنه يعود إلى نهاية الفترة الإغريقية سموه سور حسمونيا، واليوم هناك إعادة دراسة لتأريخه، وإظهار بيت محروق تم إحراقه أثناء التدمير الروماني للمدينة عام ٧٠م، مدعين بأنه بيت لرجل دين يهودي.

كما جرى التركيز على الكنس اليهودية التي تقع في الحارة الموسعة، حيث جرى إعادة ترميم لها، ويذكر بأن غالبيتها تعود إلى القرن التاسع عشر، وأن أحدها فقط له جذور تعود إلى الفترة المملوكية. وفي الآونة الأخيرة، جرت إعادة بناء لكنيس (كنيس الخربا) بقبة عالية جدا ضمن صراع على أفق المدينة القديمة، فلا يجوز من وجهة نظرهم بقاء المدينة القديمة بقبتين ضخمتين: قبة الصخرة وقبة القيامة، بدون إضافة قبة يهودية. على أي حال لم تثبت، من خلال الآثار، أي علاقة يهودية بموقع الحارة قبل الفترة المملوكية، وإن كانت هناك جاليات يهودية في

على أي حال لم تثبت، من خلال الآثار، أي علاقة يهودية بموقع الحارة قبل الفترة المملوكية، وإن كانت هناك جاليات يهودية في المدينة قبل ذلك، فقد كانت جاليات هامشية لم تترك ما يشير إليها من ناحية معمارية، سوى بعض الروايات من خلال أدب الرحلات والتي تتحدث عن وجود رمزي وغير مؤثر لليهود خلال العهود الإسلامية المختلفة.

المدينة قبل ذلك، فقد كانت جاليات هامشية لم تترك ما يشير إليها من ناحية معمارية، سوى بعض الروايات من خلال أدب الرحلات والتي تتحدث عن وجود رمزي وغير مؤثر لليهود خلال العهود الإسلامية المختلفة.

ت. الأنفاق

بدأ الهوس الإسرائيلي بالبحث عن مخلفات الهيكل في فترة مبكرة واستكمالا لجهود البعثات الغربية، لكن الأمر ازداد ضراوة بعد هدم حارة المغاربة عام ١٩٦٧ وانكشاف بعض الممرات التي تقود إلى تحت المباني، خاصة التي تعود إلى الفترة المملوكية، والمنشأة على الجدار الغربي للمسجد الأقصى، وتم الانتهاء من حفر النفق الرئيس عام ١٩٩٦ وافتتحه بنيامين نتنياهو، ما قاد إلى هبة النفق. سمى الإسرائيليون هذا النفق بالنفق الحشموني، نسبة لعائلة يهودية حكمت القدس وكيلة للدولة الإغريقية، بالرغم من أن غالبية مكوناته تعود إلى الفترات الرومانية والبيزنطية والإسلامية المختلفة بالإضافة إلى الفترة الصليبية. تحولت الكثير من القاعات المشكلة للنفق إلى قاعات صلاة لليهود، كما استطاعت السلطات الاسرائيلية عبر حفريات النفق السيطرة على كل الجدار الغربي للمسجد الأقصى، بطول يصل إلى حوالي ٤٠٠ م. ومن هذا النفق انطلقت أنفاق أخرى باتجاه الغرب والشرق، بعضها معروف ومعلن عنه وبعضه الآخر غير معروف. ومن الأنفاق المخطط حفرها، نفق لا يعرف إلى أي مدى تم حفره حتى الآن، يبدأ بمغارة الكتان (إلى الشرق من باب العمود) والتي يسميها الإسرائيليون «مغارة سليمان»، ويمتد أسفل حارة السعدية وصولا إلى طريق الواد ليلتقي بالنفق الرئيس.

ثم جاءت المرحلة الثانية من حفر الأنفاق والمتمثلة بربط بركة سلوان عبر وادي حلوة إلى الحديقة الأثرية التي تقع عند القصور الأموية بالقرب من ساحة البراق، وبالتالي تحويل ساحة البراق إلى مركز لالتقاء الأنفاق.

لا تشكل هذه الأنفاق مكانا لعرض الطبقات السفلى من الفترات التاريخية التي مرت على القدس، بل مكان يتم التحكم من خلاله بالرواية، دون أن تتشوه هذه الرواية بمنظر المساجد والكنائس والفلسطينيين الذين يديرون حوانيتهم ومدارسهم ومؤسساتهم في البلدة القديمة، لأن البلدة القديمة بمظهرها الحالي وبعد أكثر من نصف قرن من كل محاولات الأسرلة ما زالت فلسطينية، وبالتالي تقود الأنفاق الزائر إلى عالم آخر، يختفي فيه الفلسطيني ورموزه، ويغوص في أنفاق تروي كلها قصة عظمة إسرائيل وارتباطها بالتاريخ القديم.

ث. محور سلوان

تعتبر قرية سلوان الواقعة على بعد بضعة أمتار إلى جنوب وجنوب شرق البلدة القديمة محورا رئيسيا إضافيا للحفريات المكثفة، وقد تمت تسمية هذا الجزء من المدينة بـ «مدينة داود» وهي عبارة عن التلة الأقدم في المدينة والمسماة فلسطينيا بتلة الضهور أو تل سلوان. ويذكر بأن الحفريات في الموقع بدأت عبر الإرساليات الغربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولم تتوقف الحفريات حتى اليوم. لقد تم تحويل الموقع بعد العام ١٩٦٧ بعد أن أشبع حفرا وتنقيبا إلى متنزه وطني يهودي من الطراز الأول. وعلى الرغم من ضحالة الاكتشافات وعدم وضوحها ووجود اختلافات هائلة حول تفسيرها، إلا أنه قد جرى تضخيمها بشكل لا مثيل له، وسخرت كل علوم الصوت والضوء والصورة لرواية قصة لا أثر لها في الموقع.

ومن المثير معرفته بأن هذا التل يقع فوق عين الماء الوحيدة في القدس، عين سلوان، التي تتصل بالكثير من القنوات التحت

ويمكن إدراك ما يجري بالتحديد في هذه المنطقة عبر مراقبة حملات هدم المنازل المكثفة في سلوان بشكل عام، وفي حي البستان بشكل خاص، كما وتصاعدت وتيرة الاستيطان في وادي حلوة،[١٥] جنبا إلى جنب مع ازدياد عدد الحفريات وحجمها وموقعها في المنطقة نفسها، وينطبق الأمر ذاته على منطقة الشيخ جراح، حيث يجري إخلاء حي كامل والتخطيط لزرع المستوطنين في الموقع نفسه.

أرضية، مما فتح للخيال أبوابا لا نهاية لها. لقد أصبح الوضع في هذا الموقع مضحكا، فيتم الحديث عن قصر داود العظيم وحدائقه الغناء ومراكز إدارته لمملكة مترامية الأطراف، وما يتم مشاهدته على أرض الواقع ليس له أي علاقة بالموضوع، وأقصى ما يشاهد هو قرية صغيرة متخلفة نسبيا. ومحور سلوان يتم توسيعه يوميا لعله يتم اكتشاف أي شيء جديد.

يجري في الموقع سرد قصة داود وسليمان، اللذين يتحولان إلى شخصيتين مرئيتين يمكن مشاهدتهما يقتحمان يبوس الكنعانية، ويمكن مشاهدتهما وهما يصولان ويجولان في المنطقة، بل نشاهد سليمان يبني الهيكل ويتنزه في حدائق سلوان الغناء (حي البستان) يصل عين الماء ليرتوي ويتطهر ... إلخ، ولا تذكر هذه المرويات الكاريكاتيرية والمبكية في الآن نفسه بأن القدس في الفترة المذكورة (العصر الحديدي/ القرن العاشر قبل الميلادي) لم تكن سوى قرية صغيرة لا يتعدى عدد سكانها ٤٠٠ نسمة، لكنها بقوة الرواية، وليس بالاعتماد على نتائج الحفريات الأثرية، تحولت إلى عاصمة لإمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف. ما يتم تقديمه من رواية صاغها علماء الآثار المحافظين من الغربيين والإسرائيليين وأعادت كتابتها جمعية إلعاد الاستيطانية، تشعر الزائر المفعم بمشاعره الدينية اليهودية والمسيحية على حد سواء بأنه يعيش التاريخ التوراتي بحذافيره، كيف لا وهو يشاهد الأفلام التي صورت في الموقع الأثري نفسه ويشاهد حجارة الموقع وقد أعيد تركيبها بشكل لا يقبل الشك أو الجدل.[١٧]

ج. أماكن متفرقة في القدس

لم يتم التواني عن حفر أي قطعة أرض في منطقة القدس، بحيث أصبحت القدس أكثر المناطق في العالم التي جرى حفرها، كما جاءت الحفريات بسبب أعمال البنية التحتية المتكررة بحق أو بدون حق والتي نفذت في شرقي القدس، خاصة في سبيل بناء المستوطنات والشوارع الالتفافية والترام، فقد انكشفت الكثير من المواقع والمعالم الأثرية في أماكن متفرقة من المدينة، ما زاد من وتيرة النهم في الحفر، بحيث لم تبق أي بقعة في المدينة دون أن يتم حفرها، وأصبح من الصحيح الادعاء بأنه لم يتبق فيها ما يحفر. والآن تجري الحفريات داخل مباني البلدة القديمة، فكل مبنى بحاجة إلى ترميم، لا تصدر رخصة الترميم إلا بعد إجراء حفريات أثرية من قبل سلطة الآثار الإسرائيلية، وفي هذا الإطار تجرى عدة حفريات في العام. وغني عن القول إن محيط أسوار المدينة قد شهد عشرات الحفريات.

لن تعالج هذه المراجعة مسألة في غاية الأهمية تتعلق بالوضع القانوني للحفريات في القدس بشكل خاص وفي الأراضي المحتلة بشكل عام، لكن يكفي أن نقول إن كل أنواع الحفر ونقل العاديات من أراض محتلة إلى خارجها يعتبر مخالفا للقانون الدولي.[١٨]

تصاعدت في الآونة الأخيرة حملات نهب الآثارِ والأرض وما تحتها باسم «الحفريات الأثرية». وفي الحقيقة، فإن ما يسمى «الاستكشاف الأثري» الذي يدور الآن ما هو إلا جزء لا يتجزأ من حملة سياسية واسعة النطاق تجتاح منطقة القدس ضمن مخطط وضع مسبقا، ومن أعلى المستويات، وبشكل معلن، حيث تتركز النشاطات «الأثرية» في المنطقة التي تسمى «الحوض المقدس» أو «الحوض التاريخي»،[١٩] وهي المنطقة التي تضم البلدة القديمة ومحيطها، وتضم أيضا السفوح الغربية لجبل الزيتون، وسلوان، ووادي حلوة، وحي البستان، ووادي الربابة، وتمتد إلى الشيخ جراح شمالا. وقد طالبت إسرائيل مرارا بالسيطرة الكاملة والحصرية على هذه المنطقة ضمن مفاوضات الحل النهائي.

وتترافق حملة «الآثار» هذه مع حملة واسعة للاستيطان الصهيوني من جهة، وعملية الطرد السكاني للفلسطينيين من جهة ثانية. ويمكن إدراك ما يجري بالتحديد في هذه المنطقة عبر

يمكن القول إن كتابة تاريخ القدس ما بعد العام ١٩٦٧، وبشكل مواز مع الكتابات الأثرية، قد اتسمت بروح عنفوان وغطرسة انتصار حزيران عام ١٩٦٧، والكتابات كانت أخلاط ما بين إثبات تواصل التاريخ اليهودي من جهة وتقليل أدوار وعلاقات «الأغيار» بالمدينة من جهة ثانية.

مراقبة حملات هدم المنازل المكثفة في سلوان بشكل عام، وفي حي البستان بشكل خاص، كما وتصاعدت وتيرة الاستيطان في وادي حلوة،[٢٠] جنبا إلى جنب مع ازدياد عدد الحفريات وحجمها وموقعها في المنطقة نفسها، وينطبق الأمر ذاته على منطقة الشيخ جراح، حيث يجري إخلاء حي كامل والتخطيط لزرع المستوطنين في الموقع نفسه.

وفي البلدة القديمة، وعلى الرغم من صعوبة التمدد الاستيطاني، بسبب الوعي المتزايد لدى السكان، ومأسسة الدفاع القانوني عن العقارات، وتنامي حملات التصدي للمستوطنين، وأعمال ترميم المباني السكنية وتأهيلها لتحسين شروط سكن الفلسطينيين، هذا عدا عن الحاجة الماسة والمتزايدة للمساكن، ما أدى إلى رفع قيمة العقارات المادية والمعنوية، وزاد من شدة تمسك السكان الفلسطينيين بأملاكهم، إلا أن محاولات المستوطنين ما زالت تشكل خطرا حقيقيا على أجزاء واسعة من البلدة القديمة.

وفي هذا الإطار يمكن فهم محاولات السيطرة الواسعة على العقارات في البلدة القديمة باستخدام كل الطرق الملتوية، وأخطر المحاولات تدور عند باب الخليل (ميدان عمر بن الخطاب) المتمثلة بمحاولة السيطرة على فندق الامبريال وفندق البتراء، وكلاهما من أملاك بطريركية الروم الأرثوذكس،[٢١] كما أنه من المفيد التذكير باستمرار سيطرة المستوطنين على نزل سان جون (يوحنا) القريب من كنيسة القيامة، والذي تعود ملكيته أيضا لبطريركية الروم الأرثوذكس، والذي تمت السيطرة عليه بطرق ملتوية تشبه بعض الشيء الطرق التي استخدمت في السيطرة على فندقي باب الخليل. هذا إلى جانب المحاولات المستميتة للسيطرة على المزيد من العقارات في المنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى، وفي الأحياء التالية: عقبة الخالدية، وعقبة القرمي، وعقبة التكية، وطريق باب الحديد، وطريق الواد، وطريق باب السلسلة، وعلى

حي سلوان المستهدف.

درجة أقل في كل من باب حطة وحارة السعدية.[٢٢] ولم تعد حارة النصارى بمنأى عن هذه التوجهات بعد أن أحجمت الحركات الاستيطانية لفترة طويلة عن دخولها، لكنها كسرت هذا التوجه بنزل سان جون الكائن في سوق أفتيموس، وأتبعوه بمحاولات السيطرة على منطقة باب الخليل.

كتابة تاريخ القدس

رافقت أعمال الأثريين الإسرائيليين في القدس عملية هدفت إلى إعادة كتابة تاريخ للقدس بهدف تعزيز العلاقة بين اليهود، والإسرائيليين بشكل خاص، والمدينة، فبعد أن كانت الحركة الصهيونية لا تحلم بتحويل القدس (خاصة البلدة القديمة) عاصمة لها، حانت الفرصة التاريخية لذلك باحتلال كل القدس عام ١٩٦٧ ، فلم تتردد ولو لحظة عن إعلان «القدس الموحدة عاصمة لدولة إسرائيل» أضيف لها لاحقا «أبدية» وكان على المؤرخين الإسرائيليين التقاط هذا الموضوع والتوسع في

وحتى لا يُبالغ بأهمية الحراك الذي يطال علم الآثار، والذي قد ينفي كل أساس التاريخ التوراتي، إلا أن ذلك لن يغير الواقع بشكل ثوري، وقد لا ينتقل هذا الحراك إلى أبعد من نقاشات أكاديمية بين حفنة من المختصين سواء على هذه الضفة من النقاش أو تلك، فقد تعززت الرواية التوراتية وأصبحت مكونا أساسيا في المجتمع الإسرائيلي، ولن يضيرها أي اكتشاف في حقل الآثار. وقد عبر حتى منتقدو الرواية التوراتية عن عدم الحاجة لهذه الرواية لاستخدامها في تبرير وجود إسرائيل.

إثبات تاريخيته، وتاريخ الوجود اليهود في المدينة باعتماد الإحصائيات السكانية للمدينة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لإثبات وجود أغلبية سكانية يهودية في المدينة على مدار أكثر من قرن، وقد حظي هذا الموضوع باهتمام خاص بين المؤرخين الإسرائيليين.

ويمكن القول إن كتابة تاريخ القدس ما بعد العام ١٩٦٧، وبشكل مواز مع الكتابات الأثرية، قد اتسمت بروح عنفوان وغطرسة انتصار حزيران عام ١٩٦٧، والكتابات كانت أخلاط ما بين إثبات تواصل التاريخ اليهودي من جهة وتقليل أدوار وعلاقات «الأغيار» بالمدينة من جهة ثانية. لقد شكل «الانتصار» دافعا لم يكن بالإمكان لجمه أو كبح جماحه، واستخدمت همم الجنود وفرحتهم اللامتناهية بعظم الانتصار، ووثقت اللحظات «العاطفية» لالتقاء الجنود وقادتهم على أنقاض حارة المغاربة المدمرة برقصات هستيرية تشارك فيها الجنود والحاخامات، ولم يكن غبار تدمير حارة المغاربة قد تلاشى من الأفق بعد، ولم تكن جنازير الجرافات قد هدأت بعد هدم ما تبقى من بيوت المغاربة على أطراف الحارة. فجاء المؤرخون بهذه اللحظات وجعلوها منطلقا لكثير من أعمالهم التاريخية، وذلك جنبا إلى جنب الأعمال الأدبية والفنية المختلفة.

لكن من المثير مشاهدة أصوات إسرائيلية نقدية قد بدأت بالظهور، منذ نهاية ثمانينيات القرن الماضي، سميت في حينه بظاهرة «المؤرخين الجدد»، وهي ظاهرة مهمشة ومثيرة للجدل داخل إسرائيل، ولكن محتفل بها في أوساط مختلفة في العالم، وخاصة في العالم العربي، وقد اقتصرت معالجات هذه المجموعة على السنوات الأخيرة من فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، وركزت على النكبة ومسألة تهجير الفلسطينيين من ديارهم. وبالتأكيد تأتي الإثارة في موضوع المؤرخين الجدد على اعتبار أنهم من قلب المجتمع الإسرائيلي وخريجي مدارسه وجامعاته ومعتمدين بالأساس على الوثائق الإسرائيلية في معالجاتهم.

لم تنتقل ظاهرة المؤرخين الجدد إلى «الأثريين الجدد» بالصخب الإعلامي نفسه، فتأثيراتها على العموم أقل صدى، وفهمها أصعب بكثير، فالأولى تثير الكثير من معاصري الأحداث: اللاجئين الفلسطينيين والحركة الوطنية الفلسطينية من جهة، وقادة إسرائيل والكثير من جنودها ومؤسساتها وأحزابها من جهة ثانية، في حين أن حقل الآثار يقتصر على أعداد محدودة من المتخصصين، وليس في الموضوع إثارات شعبية عارمة، حيث أن فهم العموم لمعنى هذه التحولات يبقى صعبا. لكن بالتأكيد ظهرت أصوات إسرائيلية نقدية تطالب بإعادة دراسة الآثار بطرق نقدية، وعدم تسخير هذا الحقل في خدمة المؤسسة السياسية الحاكمة، وأصبحت تنظر إلى العهد القديم بوصفه مجموعة من الحكايات الشعبية التراثية المجمعة من مختلف دول الشرق وثقافاته ورفض استعماله الأعمى كمصدر تاريخي. صحيح جدا أن هذه المدرسة ظهرت منذ فترة طويلة خارج إطار المنطقة، لكن ليس بعيدا عن فكرة الصراع الدائر، إلا أن تأثيراتها بين علماء الآثار الإسرائيليين قد بدأت تظهر حاليا بشكل ملموس، وذلك بخصوص كل تاريخ فلسطين بشكل عام وتاريخ القدس بشكل خاص.

ويعتبر حقل الآثار من أهم الحقول التي تعالجها الكتابات الإسرائيلية حول القدس، وقد اعتمدت هذه الكتابات على محاولة حثيثة لإثبات نصوص العهد القديم من خلال الآثار، تواجه هذه المحاولة مشاكل صعبة في الوصول إلى المقاربة بين الآثار والنصوص، فالنصوص غنية جدا لكن الآثار ضعيفة ولم يتم حتى الآن اكتشاف نقاط ارتكاز واضحة تثبت العلاقة بين المكونين، ولا يمكن بناء عليها، ضمن ما تجمع من معلومات هائلة بعد آلاف الحفريات، تشكيل صورة ولو شكلية.

وفي ظل التراجع النسبي لدور الآثار في «إضفاء الشرعية»، على أساس أن هذا الدور قد استهلك نسبيا وفعل فعله، أصبح للآثار أدوار أخرى في القدس، حيث عزز ارتباطه وحركة الاستيطان في المدينة، بحيث أن غالبية الحفريات الأثرية المنفذة الآن ممولة من الحركات الاستيطانية وبدوافع الاستيطان وتعزيزه في القدس القديمة ومحيطها.[٢٣]

وحتى لا يبالغ بأهمية الحراك الذي يطال علم الآثار، والذي قد ينفي كل أساس التاريخ التوراتي، إلا أن ذلك لن يغير الواقع بشكل ثوري، وقد لا ينتقل هذا الحراك إلى أبعد من نقاشات أكاديمية بين حفنة من المختصين سواء على هذه الضفة من النقاش أو تلك، فقد تعززت الرواية التوراتية وأصبحت مكونا أساسيا في المجتمع الإسرائيلي، ولن يضيرها أي اكتشاف في حقل الآثار. وقد عبر حتى منتقدو الرواية التوراتية عن عدم الحاجة لهذه الرواية لاستخدامها في تبرير وجود إسرائيل. يتمنى هيرتسوغ «ألا يقرن موقفه بفرضية أن تقويض تاريخية القصص التوراتية يعني تقويض حقنا التاريخي في أرض إسرائيل». وبالتأكيد، إن أحد أسباب رفض هيرتسوغ لتلك الفرضية هو أنه يمكن التوصل إلى استنتاجات سياسية، تؤكد على العكس من ذلك أهلانية الإسرائيليين، الذين لم يأتوا إليها كغزاة. فالإحساس بالانتماء للبلاد، السائد بين الجيل الشاب، لا تعيقه الحاجة لتبرير وجود دولة إسرائيل استنادا إلى وعود ربانية.[٢٤]

كان الانزعاج الإسرائيلي الرسمي والأكاديمي كبيرا من اكتشاف دار الإمارة الأموية نظرا لما تمثله من إلغاء لنظرياتهم التاريخية القائلة بأن القدس لم تكن عاصمة إلا لليهود،[٢٥] وبالتالي تفاوتت المواقف منها من خطأ بالتأريخ أولا، واعتبارها قلاعا رومانية، وحين فشلت هذه المحاولة حاول بعضهم تجريفها وإزالتها وعدم الإعلان عن اكتشافها أصلا، ففي الوقت الذي فشلت فيه جهود قرن ونصف من الكشف عن آثار الهيكل، يظهر «هيكل سياسي» (عدا عن قبة الصخرة) إسلامي بهذه الضخامة والأهمية. وبعد فشل التدمير، أيضا لعوامل إسرائيلية داخلية، فقد جرى تهميش القصور أولا بعدم نشر ما يكفي من المعلومات حولها، وثانيا بهدمها التدريجي من ناحية فيزيائية، وتفتيت مكوناتها المعمارية، خاصة الحجارة الضخمة، والذهاب باتجاه اعتبار هذه الحجارة جزءا مما تبقى من حجارة مباني الهيكل، وأن بني أمية قد أعادوا استخدامها في بناء قصورهم، إذاً ما تبقى من قصور هو ليس دلالة على نشاط بني أمية المركزي في القدس وليس دلالة على أهمية القدس، بل هذه القصور دلالة على الهيكل الثاني.

والآن سيتم تتبع المكونات الأساسية لتاريخ القدس وباختصار شديد، كما يظهر في الكتابات التاريخية والأثرية الإسرائيلية:

١. المكون الأول: داود وسليمان، عاصمة وهيكل وقصر

احتل الملك داود، حسب الرواية التوراتية، القدس بعد أن حكم سبع سنين ونصف في الخليل، وتدريجيا تحول الاسم الكنعاني – اليبوسي «أورسالم» إلى «أورشليم»، وهي التسمية التي تستعملها إسرائيل اليوم متجاهلة التسميات الأخرى التي جاءت في العصور اللاحقة، وهذا جزء من الانتقائية التي تمت. صحيح جدا أن تسمية «أورشليم» قد سبقت الكتابات العبرية وأصولها على ما يعتقد تعود إلى اللغة الكنعانية، إلا أنه جرى تسييس هذه التسمية وكأنها التسمية العبرية اليهودية للقدس.

ومن منطلق الرواية التوراتية المرتبطة بداود، تنصب إسرائيل اليوم جسرا بينها وبين القدس وشرعية وجودها، حيث نراها قبل عقد من الزمن قد مدت الجسر إلى يومنا هذا بالاحتفال بمرور ٣٠٠٠ عام على تاريخ القدس، متجاهلة بذلك كل التاريخ الذي سبق ذلك، كما أن تسمية «مدينة داود» قد انتعشت من جديد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع هجمة الآثار التي اجتاحت القدس، وأصبح لاحقا الموقع الأثري لخرائب القدس العتيقة هو «مدينة داود»، وهو أمر يستحيل نقاشه الآن بسبب هذا التراكم الهائل من الكتابات الغربية والإسرائيلية.

تشكل «مدينة داود» محوراً أساسياً في التربية «الوطنية الإسرائيلية»، حيث تقاد إليه كل مكونات المجتمع الإسرائيلي: طلاب مدارس وجامعات وجنود ومتقاعدون نساء ورجال، ويشكل الموقع بعد حفره عبر عشرات الحفريات نقطة ارتكاز في بناء الرواية التوراتية. وأكثر الأمور إثارة هي أن الزائر لا يرى شيئا ذا بال يمكن أن يؤكد أي رواية، لكن يتم إعادة تركيب الرواية التوراتية وكأن «الحقائق» واضحة وملموسة: هنا سار داود، وعبر هذا النفق احتل داود المدينة، ومن هذا النبع شرب وجيشه، ومن على هذه الصخرة تضرع إلى العلي القدير، وهنا كانت الحدائق الغناء التي أنشأها ...إلخ. يتحول داود عبر هذه الرواية إلى شخصية تروي التاريخ وتمثله بكل حذافيره، وإن كان هذا لا يكفي فيتم اللجوء إلى تصوير أفلام وعرضها، بحيث ينطبع في ذهن الزائر قصة لا يطولها الشك من قريب أو بعيد.[٢٦]

ليس في الحقيقة من آثار في الموقع يمكن أن تحكي أي قصة، فالقدس في القرن العاشر قبل الميلاد، وبناء على الحفريات الأثرية التي استمرت أكثر من قرن ونصف (منذ منتصف القرن التاسع

فإن اللهاث المبالغ به بحثا عن بقايا الهيكل الثاني في القدس بشكل عام وفي محيط المسجد الأقصى بشكل خاص، وإن كان سياسيا في كثير من أبعاده، إلا أنه لا يخلو من محاولات تأكيد مسار التاريخ، والتأكيد على أن التاريخ اليهودي في القدس ليس أسطوريا، وحين جاءت نتائج البحث الأثري باهتة جدا، لا تتوافق وأقل تقدير مع الصورة المضخمة للهيكل الثاني، تمت الاستعاضة عن ذلك بموقع قريب.

عشر) لم تكن سوى قرية صغيرة أو بلدة متواضعة وفق معايير العصر الحديدي، قد تكون احتوت على قلعة صغيرة حصينة، تصد عبرها هجمات الأعداء المحليين، لكنها تقل أهمية بكثير من المرات عن مواقع قريبة عاشت كمدن في الفترة نفسها، وإن كانت القدس مهمة في هذا القرن فلم تتعد أهميتها المنطقة المحيطة، فلا شيء يدل على عاصمة دولة لا كبيرة ولا صغيرة ولا تتمتع بأي فخامة مزعومة. إن كل الدلائل تشير إلى وهمية هذا التاريخ وأنه قد جرى تصنيعه في مصنع الأساطير والحكايات الشرقية.

وبالانتقال إلى المرحلة الثانية من كتابة التاريخ يلعب سليمان بن داود دورا محوريا آخر، فهو باني الهيكل الأول وهو الذي بنى قصرا عظيما ووسع «مدينة داود» لتصبح عاصمة لإمبراطورية كبيرة. إن الآثار لا تختفي كليا، ولم يكن لأحد في الماضي مصلحة بإخفائها. يتمتع داود وسليمان في الإسلام بلقب الأنبياء، وآثارهم مقدسة، كما يلعبان دورا مركزيا في التراث الديني المسيحي فليس للمسيحيين ولا للمسلمين مصلحة بطمس آثارهما، فأين ذهبت هذه الآثار؟ لم يتم حتى الآن اكتشاف قصر سليمان ولا هيكله، لكن ذلك ليس مهما أبدا، فكتبة التاريخ في إسرائيل يسدون كل فراغ محتمل لتكتمل الرواية.[٢٧]

وبهذا الخصوص، يتم تجاهل تاريخ القدس قبل ما يسمى «فترة الهيكل الأول»، فالعهد القديم يسكت تماماً عن ذكر ما آل إليه سكان المدينة قبل احتلالها من قبل داود، والذين يسميهم العهد القديم باليبوسيين، كما لا يتضح مصير آلهتهم وطقوسهم الدينية (الكنعانية)، ومدى تأثير الحضارة اليبوسية على القبائل العبرية التي كانت بمعايير العهد القديم أقل تطورا من الحضارة المقيمة. ويخبرنا العهد القديم أن سليمان لم يجد من بين أبناء جلدته من يستطيع المساهمة من ناحية معمارية أو فنية في أعمال بناء الهيكل، فيستورد تبعا لذلك العمال المهرة من مدينة صور.

لا شيء من كل ما ذكر له ما يؤكده ولو من باب التقريب في الآثار، فلا القصر المنيف ولا الهيكل العظيم قد بقي منهما ما يدل ليس على عظمتهما، بل حتى على وجودهما. تم تأليف المئات من الكتب والآلاف من المقالات حول هيكل سليمان، وساهم في ذلك الإسرائيليون واليهود في العالم، إلى جانب مساهمات ضخمة من علماء الآثار التوراتيين. إن قراءة آخر ما تم التوصل إليه، لا يعدوا محاولات حثيثة لدراسة المعابد المعروفة في فلسطين والأردن ولبنان، وذلك في محاولة لتخيل شكل هيكل سليمان. عبر هذه الدراسات أصبحنا نملك معلومات عن كل المعابد، إلا عن معبد (هيكل) سليمان.[٢٨]

٢. المكون الثاني: الهيكل الثاني

يأتي الهيكل الثاني في سياق إثبات العلاقة بين اليهود والقدس وتواصل هذه العلاقة عبر العصور، وهو مبنى رائع الكمال، بناء على الوصف المعتمد، يتجاوز في جماله وثرائه المعهود، وتتم الزيادة في تأنقه وروعته عبر العصور، ويحمل في طياته، بغض النظر عن الحقيقة التاريخية، كل أشكال النوستالجيا والحنين، وتكتب حوله كل القصص، وتختلط المعلومات المتواضعة بأدب حنين لا ينضب. يصبح الهيكل الثاني أيقونة يهودية يدخل إلى مختلف العادات والتقاليد، الدينية والدنيوية، فهو إنجاز لا يضاهى، ودماره تعبير عن عقاب الله لمن ضلوا الطريق.

تحول «الهيكل» و«جبل الهيكل» إلى رمز لا يضاهى، مبرر للوجود والتأصل، وسبب إحياء ذكرى إسرائيل على مر عصور الشتات منذ السنة السبعين بعد الميلاد حين قام طيطس الروماني بتدميره، وبالتأكيد لعب دورا في صياغة «المشترك» بين يهود العالم، خاصة بعد تلاشي الكثير من «المشترك» مثل اللغة العبرية والجغرافيا، وبسبب الانخراط في المجتمعات المختلفة، وبهذا كان

يتم استحضار الهيكل الثاني، وبالتالي «القدس»، ليعيد اللحمة بين اليهود وليساهم في التصدي المستميت لعملية اندماج اليهود في مجتمعاتهم المختلفة. قام الأغيار (الرومان) بتدمير الهيكل الثاني وطرد اليهود من القدس ومنعهم من السكن فيها لقرون طويلة، وذلك خوفا أن يقوم اليهود بتحقيق ذاتهم، لذلك فالتمسك بقصة الهيكل ومركزيته هو تمسك بالهدف اليهودي لمنع الاندماج وللبحث عن بقعة جغرافية تحقق عليها الذات اليهودية المختلفة عن محيطها بإرادة وقرار مسبق.

لذلك كله، فإن اللهاث المبالغ به بحثا عن بقايا الهيكل الثاني في القدس بشكل عام وفي محيط المسجد الأقصى بشكل خاص، وإن كان سياسيا في كثير من أبعاده، إلا أنه لا يخلو من محاولات تأكيد مسار التاريخ، والتأكيد على أن التاريخ اليهودي في القدس ليس أسطوريا، وحين جاءت نتائج البحث الأثري باهتة جدا، لا تتوافق وأقل تقدير مع الصورة المضخمة للهيكل الثاني، تمت الاستعاضة عن ذلك بموقع قريب[٢٩] بحيث يتم عرض الهيكل الثاني بطريقة مختلفة تعتمد على التخيل وتقنيات الضوء والصوت وإقناع الزائر بأن الهيكل حتى في أدق تفاصيله الزخرفية هو حقيقة مطلقة. لقد تم تسخير جهاز حاسوب تفوق قدرته ٣٠٠,٠٠٠ قدرة الحاسوب الشخصي، واستخدمت تقنيات تم استيرادها من أميركيا وهي التقنيات التي يستعملها سلاح الجو الأميركي لمحاكاة الطيران، أو الطيران الافتراضي. لقد استحضر هذا البرنامج القدس في العهد الروماني بالأبعاد الثلاثية، وتم تخيل القدس بكل تفاصيلها لدرجة تُصور تفاصيل ملابس السكان، لكن هناك تركيزا واضحا حول الهيكل الثاني. تتحول القدس الرومانية عبر هذه الحديقة التاريخية إلى مدينة حرم للهيكل، وليس إلى مدينة رومانية وثنية، كما كانت عليه.[٣٠] ويقوم الزائر بمشاهدة فيلم وثائقي تحت عنوان «من هنا بدأ ... ومازال مستمرا» (Where it all began … and still continues) رابطا بين داود الملك وإسرائيل، وكأن ٣٠٠٠ عام لم تمر ولم يكن بينها فترات تاريخية وحضارات مختلفة مرت على القدس، وكأن مستوطني إلعاد هم السكان الذين وطنهم داود في القدس اليبوسية. وتعزز الرواية بعشرات الأعلام الإسرائيلية التي ترفرف على الموقع وعلى بيوت المستوطنين. لقد تم تحويل ما استطاعوا السيطرة عليه من سلوان إلى حي توراتي جديد.[٣١]

تم تحويل كل مكونات الموقع المكون من تلة أوفل العتيقة، وموقع دار الإمارة الأموية إلى حديقة أثرية خدمة للأهداف السابقة، وتم إعطاء الموقع كله لحركة استيطانية متطرفة (تسمى إلعاد) لإدارته وتقديم روايتها للموقع.[٣٢] ويترافق وهذه الرواية التوسع الاستيطاني في حي سلوان، وتسعى العاد إلى توسيع منطقة سيطرتها لتضم حي البستان، حيث تقرر بأن داود الملك كان يمتلك في هذا الحي حدائق. يهدف المخطط هذا إلى إخلاء حوالي ٩٠ مبنى فلسطينيا من سكانها وتشريدهم وإحلال حدائق وروايات توراتية ومستوطنين مكانهم، وهكذا وظفت الآثار والروايات التاريخية والدينية، بغض النظر عن تاريخيتها وصدقيتها، في سبيل السيطرة على الأرض وطرد السكان.

أول ما يشاهده الزائر في الحديقة الأثرية هي أشكال مختلفة لكيفية تمثل الهيكل الثاني بتعبيرات فنية ومعمارية عبر العصور، كما تقدم المخططات التفصيلية للهيكل ومسطرة تاريخية للقدس. إن الدخول إلى هذه الحديقة يعتبر دخولا لبوابات الهيكل، وبهذا لا يمتلك المشاهد سوى القدرة على التدقيق في تفاصيل الهيكل وينسى أي نظرة نقدية اتجاه التاريخ، بحيث تأخذه التفاصيل من قطع فخارية إلى نقود إلى أشكال وتفاصيل إلى ثورة باركوخبا إلى تفاصيل ملابس كهنة الهيكل وأدواته المقدسة.[٣٣]

أما الأعمدة الأخرى لكتابة تاريخ القدس، فتقع خارج هذه المراجعة، حيث يتم فيها القفز عن «فترة الهيكل الثاني» إلى العام ١٨٨٢ لاستحضار الهجرة اليهودية الأولى لفلسطين (علياه رشوناه) ثم إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، وختاما الانتصار في حرب حزيران عام ١٩٦٧ .

ختاما

تلعب القدس دورا مركزيا ليس فقط في كتابة تاريخ إسرائيل، بل في كتابة تاريخ اليهود عبر التاريخ. ليس بالضرورة أن تلعب «الحقيقة التاريخية» أي دور في ذلك، المهم أن يساهم التاريخ والأسطورة الدينية في بلورة الهوية. تواجه إسرائيل مشكلة كبيرة في ظل الدراسات النقدية المتتالية التي تنفي الكثير من مكونات التاريخ المتخيل لليهود، وهي مسألة دفعت إسرائيل بنفسها إلى داخلها، كونها ربطت وجودها، ولو بشكل شكلي، بحقوق تاريخية، دافعة عن نفسها كونها مشروعا استعماريا غربيا.

ويبدو أن إسرائيل لم تستسلم بعد لنتائج الدراسات التاريخية الأخيرة، ومن ضمنها ما قام به بعض الإسرائيليين، فقد رأينا أن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو يشد الاهتمام الإسرائيلي من جديد بإعلان قائمة التراث اليهودي في فلسطين ومن ضمنها الضفة الغربية والقدس، والتي سيتم استثمار

ملايين الدولارات في ترميمها وتنظيم العلاقة بين «اليهود وتراثهم».

يمكن بالتأكيد وصف الصراع على القدس بأنه صراع على الأرض والسيادة عليها، لكنه أيضا صراع على الرموز والشكل والمظهر والعلم الذي يرفع على مبانيها وأسوارها، كذلك هو صراع على الرواية (narrative). وتزايد الصراع، بل فرض الحقائق من جانب واحد في الآونة الأخيرة، وذلك في كل الجوانب المذكورة، بحيث يمكن القول إن الوضع العام يشهد خواتم الأمور، ويتجسد ذلك بنشاط محموم فوق الأرض في محيط البلدة القديمة وداخلها يهدف إلى حسم الصراع على شكل المدينة المقدسة ومشهدها الثقافي، فقد مرت أكثر من خمسة عقود على احتلالها وما زال مظهرها (هويتها) الأساس عربية، مما سرع المشروعات الإسرائيلية المختلفة لتغيير مشهد المدينة وإكسابه هوية مغايرة، إن لم تكن يهودية إسرائيلية، فعربية أقل.

ويتوازى هذا النشاط مع الحفريات الإسرائيلية[٣٤] المكثفة التي تجري في أماكن مختلفة تحت المدينة لإعادة تركيب الحركة والولوج إليها من جهة، وتقديم شكل مغاير لمظهرها يقلل، على أقل تقدير، من أبعاده العربية من جهة ثانية، كما سيعزز الحركات الاستيطانية، ويجعل من الزيارة الإسرائيلية إلى القدس القديمة تتم دون مشاهدة الفلسطينيين ومعالمهم قدر الإمكان. وهذا طبعا يتوازى أيضا مع تقديم رواية إسرائيلية توراتية لتاريخ القدس تعتمد على إظهار كل ما هو ممكن أن يكون ذا صلة باليهودية وتاريخها، حتى لو تطلب الأمر هدم أجزاء وبناء أجزاء أخرى من القدس لتتوافق وهذه الرواية وتخدمها، وإن كانت الآثار لا تخدم ذلك، وهي في أغلب الأحيان لا تفعل، فيمكن الاعتماد على التقنيات الحديثة المدعمة بالصوت والضوء والمجسمات التخيلية للاستعاضة عن الآثار الملموسة، حتى يهيئ للمشاهد أنه أصبح يلامس التاريخ بحقائقه المطلقة، خاصة إذا دعمت الرواية باقتباسات من العهد القديم ومن مؤرخي إمبراطورية روما، ومن مؤرخي أوروبا في القرن التاسع عشر.

الهوامش

1 Amihai Mazar, *Archaeology of the Land of the Bible. 10,000-586 B.C.E.* (New York, 1992), p. 31.

٢ أستاذ في قسم آثار وحضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب كان قد صرّح «إن الحفريات الأثرية المكتشفة في أرض إسرائيل خلال القرن العشرين، قد أوصلتنا إلى نتائج محبطة، كل شيء مختلق، نحن لم نعثر على شيء يتفق مع الرواية التوراتية».

٣ غبريئيل بيتربرغ، **المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات إسرائيلية**، ترجمة سلافة حجاوي،)رام الله، منشورات مدار، ٢٠٠٩(، ص ٢٩٢. صدر الكتاب أولا بالإنجليزية تحت عنوان: *The Returns of Zionism: Myth, Politics and Scholarship in Israel*, (London and New York, 2008).

4 Nadia Abu El-Haj, *Facts on the Ground: Archaeological Practice and Territorial Self-Fashioning in Israeli* Society, (Chicago: University of Chicago Press, 2001)

٥ أنظر على سبيل المثال

Klaus Bieberstein, *A Brief History of Jerusalem from the Earliest Settlement to the Destruction of the City in AD* 70, (Wiesbaden: Harrassowitz Verlag, 2017), pp. 8-18.

٦ حول الشعوب الأخرى التي كانت تسكن فلسطين خلال الفترة التي سميت «الفترة التوراتية»، أنظر الكتاب المهم الذي ألفته كيت وايتلام، Keith Whitelam, The Invention of Ancient Israel: *The Silencing the Palestinian History*, (Routledge, 1996).

٧ انتشرت فكرة تأليف الكتب حول جغرافية فلسطين في القرن التاسع عشر، ويمكن حصر عدد كبير منها، نذكر منها على سبيل المثال:

J.C. Wigram, The Geography of the Holy Land, London 1832; George Adam Smith, *The Historical Geography of the Holy Land*, (London 1894).

٨ ولد عام ١٩١٧ في القدس، كان والده عالم آثار شهيرا يحمل اسم اليعازر سوكينيك (Eleazer Sukenik)، غير يغئال اسم عائلته إلى يادين، انضم إلى عصابات الهغناه وهو في الخامسة عشرة من عمره.

9 Yegael Yadin, *Masada: Herod's Fortress and the Zealots' Last Stand*. (New York: Random House 1966)..

ويمكن إلقاء نظرة على دوره في خلق الأسطورة الصهيونية عبر الدراسة الموسعة التي قام بها:

Neil A. Silberman, *A Prophet from Amongst You: The Life of Yigael Yadin, Soldier, Scholar, and Mythmaker of Modern Israel,* (Boston: Addison Wesley 1994).

١٠ كتب الكثير حول متسادا بين داعم ليادين ومعارض بشدة له لأنه استعمل أدوات علمية لإثبات «تاريخية» أسطورة، ولوى بذلك ذراع علم الآثار، ولأجل إثبات الأسطورة ضحى بالعلم وأدواته، أنظر على سبيل المثال الكتابين المهمين حول الموضوع:

Nachman Ben-Yahuda, *The Masada Myth. Collective Memory and Mythmaking in Israel*. (Madison: University of Wisconsin Press 1995); Nachman Ben-Yehuda, *Sacrificing Truth. Ar- chaeology and the Myth of Masada,* (Amherst, New York: Prometheus/Humanity Books 2002).

11 See, N. Silberman. "Archaeology, Ideology, and the Search for David and Solomon", in eds. A. Vaughn and A. Killbrew, *Jerusalem in Bible and Archaeology: The First Temple Period*, (Atlanta, Society of Biblical Literature 2002), p. 395-404.

12 Yegal Yadin, *Jerusalem Revealed: Archaeology in the Holy City 1968-1974*, (Yale University Press, 1976).

١٣ ولد في روسيا عام ١٩٠٦، حصل على الدكتوراه من جامعة جيسن الألمانية عام ١٩٢٩ وهاجر مباشرة إلى فلسطين حيث أصبح سكرتيرا لجمعية استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Society) وأصبح في العام ١٩٥٩ رئيسا للجمعية نفسها التي أصبح اسمها جمعية استكشاف إسرائيل (Israel Exploration Society).

١٤ لمزيد من الإسهاب حول ذلك، أنظر:

Nur Masalha *The Bible and Zionism: Invented Traditions, Archaeology and Post-Colonialism in Palestine-Israel,* (London: Zed, 2007); P L Kohl, M. Kozelsky, and N. Ben-Yehuda, (eds.) *Selective Remembrances: Archaeology in the Construction, Commemoration, and Consecration of National Pasts,* (Chicago: University of Chicago Press, 2007).

١٥ العاد هي حركة استيطانية عنصرية متطرفة تأسست سنة ١٩٨٦ بهدف إعادة توطين اليهود في القدس بشكل عام وفي سلوان بشكل خاص. وتعتمد هذه الحركة على تبرعات يهود العالم، خاصة يهود الولايات المتحدة. استطاعت الحركة وبطرق ملتوية ومصادرات السيطرة على عدد من البيوت العربية في حي وادي حلوة، وقد بلغ عدد المستوطنين اليهود في الحي الآن حوالي ٤٠٠ مستوطن. حول العاد وباقي الجمعيات والحركات الاستيطانية وحركات الهيكل، أنظر Ir Amim, *Dangerous Liaison: The Dynamics of the Rise of the Temple Movements and their Implications*,(Jerusalem 2013).

١٦ أنظر منير فخر الدين وسليم تماري، **الأوقاف والملكيات المقدسية: دراسة لعقارات البلدة القديمة في القرن العشرين**،(بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٨)، ص ٢٤.

١٧ حول الحفريات في سلوان، أنظر Raphael Greenberg, "Archaeology in Jerusalem 1967-2008: Towards an Exclusive Archaeology in Jerusalem: The Case of Silwan/the City of David". *Public Archaeology*, Vol. 8, No. 1, pp. 35-50.

١٨ تعتبر القدس بشرقها وغربها أرضا محتلة بموجب القانون الدولي، حيث أن القرار الدولي الوحيد الذي ينطبق على المكانة القانونية للقدس هو قرار التقسيم لعام ١٩٤٧، والذي تحتل فيه القدس مكانة خاصة تحت إدارة دولية. ويذكر بأن كافة القرارات الدولية اللاحقة لم تغير هذه المكانة، كما لم تغيرها الاتفاقات الفلسطينية الإسرائيلية منذ العام ١٩٩٣، ومما يؤكد ذلك وضع القدس (وليس الشرقية فقط) على قائمة موضوعات الحل النهائي، وذلك في اتفاقيات أوسلو. وحتى لو افترضنا جدلا أن القدس الشرقية فقط هي المحتلة بناء على القانون الدولي، فهذا يعني بأن كل الحفريات التي جرت بعد العام ١٩٦٧ في البلدة القديمة ومحيطها غير شرعية وتعتبر انتهاكا للقانون الدولي.

١٩ اصطلاح أطلقه الإسرائيليون رسميا في مفاوضات الحل النهائي في كامب ديفيد عام ٢٠٠٠، أما في المفاوضات التحضيرية وغير الرسمية فقد ظهر هذا الاصطلاح منذ منتصف تسعينيات القرن الماضي، ويقصد به المنطقة الجغرافية المذكورة أعلاه، وقد يتسع أو يضيق مداها تبعا للتطورات. وبالرغم من الموافقة الإسرائيلية المبدئية على معايير الرئيس الأميركي الأسبق كلينتون، والتي تقضي بتقسيم القدس تبعا للسكان، بحيث تصبح الأحياء الفلسطينية تابعة للسلطة الفلسطينية، وكذلك بالنسبة للأحياء الإسرائيلية، إلا أن المفاوض الإسرائيلي أصر على خصوصية هذه المنطقة.

٢٠ استطاع المستوطنون السيطرة على أكثر من خمسة عشر عقارا في وادي حلوة، كما قامت بلدية القدس وسلطة الآثار الإسرائيلية بالسيطرة على غالبية المساحات المفتوحة، وقد قدر حجم الاستحواذات هذه بأكثر من ثلث مساحة وادي حلوة. ويذكر بأن الاستيطان في وادي حلوة هو مجرد حلقة في سلسلة من المخطط الاستيطاني القاضي بعزل غالبية أجزاء البلدة القديمة عن التواصل السكاني مع الفلسطينيين الذي يعيشون في محيط البلدة القديمة، ويتم ذلك مرة باسم الحزام الأخضر الذي سيغلف البلدة القديمة، ومرة أخرى باسم الآثار وإنشاء المحميات الثقافية والحدائق الوطنية والتوراتية.

٢١ سيطرت إسرائيل على قلعة القدس الواقعة في الميدان نفسه عام ١٩٦٧ وذلك بحجة أنها أملاك دولة، وقامت بإجراء الحفريات فيها، وحين لم تنطق هذه الحفريات بتاريخ يهودي ذي مغزى أو أهمية، حولت المباني القائمة، وغالبيتها الساحقة مبان تعود إلى الفترات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، إلى متحف لتاريخ القدس، يسرد تاريخا متحيزا ويعبر عن الرؤية والرواية الرسمية الإسرائيلية لتاريخ المدينة. وليس بعيدا عن القلعة، صادرت الشرطة الإسرائيلية مبنى القشلة (القشلاق)، تحت المبرر نفسه. ويذكر بأن مبنى القشلة قد شيده إبراهيم باشا ابن محمد علي الكبير أثناء السيطرة المصرية على القدس (١٨٣١-١٨٤٠). ويستخدم القشلاق الآن مقرا للشرطة الإسرائيلية وسجنا، وفيه مركز مراقبة البلدة القديمة عبر الكاميرات المنتشرة في كل بقعة من البلدة القديمة. إن استكمل المشروع الاستيطاني في هذه المنطقة الحيوية، فإن مساحة ضخمة من البلدة القديمة (منطقة باب الخليل) ستتحول إلى بوابة إسرائيلية يهودية للقدس، وهي بوابة مركزية جدا. وقد حاولت إسرائيل مرارا في كل المفاوضات الرسمية وغير الرسمية ضمان السيطرة الإسرائيلية على باب الخليل وصولا إلى حارة اليهود عبر حارة الأرمن.

٢٢ تجاوز عدد النقاط الاستيطانية ٨٥ نقطة في البلدة القديمة، وذلك خارج ما يسمى بحارة اليهود. وتدور الكثير من المشاريع الاستيطانية سواء فوق الأرض أو تحتها حول ربط هذه النقاط بعضها ببعض، وربطها مجتمعة بحارة اليهود وساحة حائط البراق، وهنا يتضح الدور المركزي الذي تتمتع به سلطة الآثار الإسرائيلية باستخدام حجج دراسة تاريخ القدس والكشف عن آثار المدينة وتشجيع السياحة، وذلك في سبيل تنفيذ هذا المخطط.

٢٣ لمزيد من التفاصيل حول ارتباط الحفريات الأثرية بالحركات الاستيطانية، أنظر نظمي الجعبة، "القدس بين الاستيطان والحفريات"، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، مج ٢٠، عدد ٧٩،)صيف ٢٠٠٩(، ص ٣٩ وما بعدها.

٢٤ أنظر، بيتربيرغ، **المفاهيم الصهيونية**...، ص ٣٠٨.

٢٥ كانت أيضا عاصمة لمملكة بيت المقدس الصليبية، وقبل ذلك عاصمة الأمر الواقع لبني أمية.

٢٦ لمزيد من التفاصيل يمكن زيارة الصفحة الالكترونية لمدينة داود:
http://www.cityof david.org.il/IrDavidFoundation_Eng.asp

٢٧ قامت عالمة الآثار الإسرائيلية ايلات مازار عام ٢٠٠٥ بإجراء حفرية إلى الجنوب من المسجد الأقصى، واكتشفت بضع صفوف من الحجارة المهذبة وأعلنت أنها اكتشفت قصر داود، صحيح أن الكثير من الجادين في حقل الآثار ومنهم إسرائيليون قد أشبعوها نقدا، لكن ذلك لم يؤثر في الرواية الرسمية التي تشير الآن إلى قصر داود. حول اكتشافات مازار، أنظر

Eilat Mazar, "Did I Find David's Palace?" *Biblical Archaeological Review*, January/February 2006.

ولمراجعة وجهة النظر المعارضة لهذا الفهم، أنظر Israel Finkelstein and Neil Asher, *David and Solomon: In Search of Bible's Sacred Kings and the Roots of Western Tradition,* (New York: Free Press, 2006), pp. 270.

٢٨ كنماذج لهذه الدراسات، أنظر: Y. Aharoni, «The Solomonic Temple, the Tabernacle and the Arad Sanctuary», in: H.A.Hoffner Jr. (ed.), *Orient and Accidence*, (Kevelaer, 1973), pp.1-8.

٢٩ يقع الموقع إلى الجنوب من المسجد الأقصى فيما يسمى بالحديقة الأثرية، ويسمى مجمع دافيدسون، نسبة للثري اليهودي الذي تبرع بملايين الدولارات لإنشائه.

٣٠ حول الحديقة الأثرية ورسالتها ودور حركة العاد الاستيطانية انظر:

Wendy Pullan and Maximilian Gwiazda. «City of David: Urban Design and Frontier Heritage», *Jerusalem Quarterly File*, (Autumn 39, 2009), pp 2938-; Yusef Said al-Natsheh. «The Digital Temple», *Jerusalem Quarterly File*, (October 19, 2003), pp. 5358-.

٣١ حول ذلك أنظر:

Raphael Greenberg, «Towards an Inclusive Archaeology in Jerusalem: The Case of Silwan/the City of David», in *Public Archaeology*, , 8.1 (2009), p. 35–50; Yas, J. «(Re)designing the City of David: Landscape, Narrative and Archaeology in Silwan», *Jerusalem Quarterly File* (Winter 2000), p. 17-23; J. M. Cahill and D. Tarler, «Excavations Directed by Yigal Shiloh at the City of David, 1978–1985», in H. Geva (ed.). *Ancient Jerusalem Revealed*. Biblical (Archaeology Society, 1994) p. 31–45

٣٢ تقع كل المواقع الأثرية المفتوحة للزيارة في إسرائيل تحت سلطة حماية الطبيعة والحدائق العامة، وكان موقع تلة أوفل يقع تحت سيطرة السلطة المذكورة، الا أنها قدمته في تسعينيات القرن العشرين لحركة العاد الاستيطانية لإدارته، ومنذ ذلك الحين تقوم هذه الحركة ليس فقط بإدارة الموقع وتقديم روايتها المتطرفة والعنصرية حول التاريخ، بل تعيد تشكيل كل المنطقة المحيطة بالموقع خدمة لخططها الاستيطانية، كما قامت بملء المنطقة بالحراس المسلحين لتحويل حياة الفلسطينيين في سلوان إلى جحيم على طريق ترحيلهم، أنظر

Meron Rapoport. 2006. «The Republic of Elad», *Ha'aretz*, 23 April 2006.

33 Yusef Said al-Natsheh. «The Digital Temple», *Jerusalem Quarterly File,* (October 19, 2003), pp. 53-58.

٣٤ كنا قد عالجنا موضوع الحفريات في مقالة سابقة، أنظر نظمي الجعبة، «القدس بين الاستيطان والحفريات»، مجلة الدراسات الفلسطينية، مجلد ٢٠، عدد ٧٩ (صيف ٢٠٠٩)، ص ٣٩وما بعدها.

٣٥ استطاع المستوطنون السيطرة على أكثر من خمسة عشر عقارا في وادي حلوة، كما قامت بلدية القدس وسلطة الآثار الإسرائيلية بالسيطرة على غالبية المساحات المفتوحة، وقد قدر حجم الاستحواذات هذه بأكثر من ثلث مساحة وادي حلوة. ويذكر بأن الاستيطان في وادي حلوة هو مجرد حلقة في سلسلة من المخطط الاستيطاني القاضي بعزل غالبية أجزاء البلدة القديمة عن التواصل السكاني مع الفلسطينيين الذي يعيشون في محيط البلدة القديمة، ويتم ذلك مرة باسم الحزام الأخضر الذي سيغلف البلدة القديمة، ومرة أخرى باسم الآثار وإنشاء المحميات الثقافية والحدائق الوطنية والتوراتية.